تسديد تبليغ الدين لما ينفع الناس في المجتمعات الإفريقية

ذ. عبد الله بن إدريس أبو بكر ميغا

رئيس فرع مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة بجمهورية النيجر

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل غاية الرسالة المحمدية ومقصدها الأساس، إلحاق شمول الرحمة بالعالمين، وإخراج الناس، كل الناس من الظلمات إلى النور، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1] ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[2]،

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على معلم الناس الخير، الذي أوتي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصاراً، والذي بين سبب ابتعاثه وغايته فقال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[3]، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن النعمة العظيمة التي منَّ الله تعالى بها على عباده، نعمة الهداية لهذا الدين العظيم، والوصول إلى الطريق المستقيم، الموصل -بإذن الله تعالى - إلى دار الكرامة والنعيم. وهذه النعمة، كغيرها من نعم الله، تستوجب شكر المنعم - جل في علاه - الذي رضي عن عباده المؤمنين، فوفقهم لسبل تبليغ الدين لما ينفع الناس في

1- سورة الأنبياء، الآية: 107.

2-سورة إبراهيم الآية 1.

3- رواه الإمام البيهقي في السنن الكبرى، دار المعارف العثمانية (10 /191).

البلدان الإفريقية وغيرها من البلدان الأخرى.

وإن أهمية الكتابة في مثل هذا الموضوع واضحة، لأنه يبعث الأمل في نفوس المسلمين في البلدان الإفريقية، وطلاب العلم منهم خاصة، ويشعرهم بانتمائهم إلى محيط إسلامي كبير.

ولهذا أرى أن من أهم السبل والوسائل وأكثرها فاعلية وتأثيرا في تبليغ الدين للناس، مايقوم على العلم والتعليم الصحيح، القائم على كتاب الله العزيز، وسنة رسوله الصحيحة، والتوعية بعظمة هذا الدين الحنيف، حيث يزود الشباب بنور العلم، يحملون به في أيديهم مشاعل يضيئون بها ويزيلون بها مجاهل الجهل وظلمات الشرك.

هذا العلم هو الأساس الذي قام ويقوم عليه هذا الدين العظيم، ومثله ماجاء في كثير من آي الذكر الحكيم، من الإشادة به وبالعلماء، وفي سنة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، «العلماء ورثة الأنبياء»[1].

ونظرا لاتساع هذا الموضوع، فسيكون حديثي منصبا ومحصورا على المنطقة الإسلامية من السودان الغربي، أي غرب إفريقيا جنوب الصحراء، التي لعبت دورا تاريخيا على مستوى القارة، بل على مستوى الحضارة الإسلامية.

فلن أتعرض إذن لجميع بلدان القارة الإفريقية المنبثة على طول القارة وعرضها وشمالها وجنوبها ووسطها، وليس ذلك تقليلا من شأنها، أو جهلا بدورها البناء في مجال تبليغ الدين.

وسأصل إلى هذه المنطقة الإسلامية بعد إشارة وجيزة إلى الإسلام والعالم، وإفريقيا، والإسلام في إفريقيا.

1- رواه أبو داود في سننه (3641) وأخرجه غيره وتكملة الحديث: ... وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر".

وسأتناول هذا الموضوع: "تسديد تبليغ الدين لما ينفع الناس في المجتمعات الإفريقية"، من خلال العناصر التالية:

المدخل: وفيه بيان موقف المؤرخين من سرعة انتشار الإسلام في المعمورة.

العنصر الأول: الأنبياء والرسل وتبليغ الدين والدعوة لأقوامهم.

العنصر الثاني: من يمارس تبليغ الدين والدعوة في المجتمعات الإفريقية المعاصرة وغيرها؟

العنصر الثالث: الوسائل المادية لتبليغ الدين والدعوة إليه في البلدان الإفريقية وغيرها.

العنصر الرابع: أساليب تبليغ الدين في المجتمعات الإفريقية المعاصرة وغيرها.

العنصر الخامس: التبليغ والدعوة في وسط غير إسلامي، وفي وسط إسلامي.

العنصر السادس: وهو عبارة عن خاتمة البحث وخلاصته .

العنصر السابع: وهو عبارة عن أفكار للتوصيات المقترحة.

وأرجو أن يكون هذا العمل تذكرة لإخوة الإسلام، ولأبناء المنطقة، خاصة طلاب العلم في الجامعات من أبناء بلدان فروع مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة.

هذا، وقبل أن أسترسل في الحديث عن عناصر هذا الموضوع، أود أن أختم هذه المقدمة ببيان عظم أجر من يبلغ الدين لما ينفع الناس، وعلو منزلته عند الله العلي القدير، ذلك:

1 - لأن الداعي إلى الله تعالى ومبلغ الدين لما ينفع الناس، من أحسن الناس قولا، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا

وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1].

2 - ولأن دعاء النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم لمبلغ كلامه إلى غيره: «نضر الله امرءا سمع مقالتي فبلغها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[2].

3 - ولأن الثواب الجزيل لمن اهتدى على يده إنسان، فقد قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه، لما أعطاه الراية يوم خيبر: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فو الله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا، خير لك من أن يكون لك حمر النعم»[3].

4 - للداعي المبلغ مثل أجور من يتبعه ... قال رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله»[4].

5 - صلاة الله تعالى ومن في السماوات والأرض على معلم الناس الخير، فقد قال رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم : «إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت، ليصلون على معلم الناس الخير»[5].

هذا والله تعالى أسأل أن يوفق ويسدد لإتمام هذا العمل، على الوجه المأمول، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

1- سورة فصلت الآية 33.

2- رواه أبو داود (رقم 3660).

3- متفق عليه، البخاري، رقم3701، ومسلم برقم 2406.

4- رواه مسلم في صحيحه برقم 1893.

5- رواه الترمذي برقم 2685 وغيره.

المدخل: في بيان موقف المؤرخين من سرعة انتشار الإسلام في جميع المعمورة:

أولا -الإسلام والعالم:

يندهش المؤرخون من السرعة الفائقة التي انتشر بها الدين الإسلامي في أنحاء متفرقة ومتباعدة من المعمورة...فأضاءت أنواره الغابات، وسارت المراكب بكلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» في أشهر الأنهار والبحار، وفي كل صقع من أصقاع الأرض..

ثانيا- إفريقيا:

إفريقيا من أعظم القارات، يفصلها عن أوروبا البحر الأبيض المتوسط، وعن آسيا البحر الأحمر، وتبعد سواحلها عن الأميركتين مسافات شاسعة عبر المحيط الأطلسي، وأكبر طولها من الشمال إلى الجنوب ثمانية آلاف كيلومتر، وأقصى عرضها من الشرق إلى الغرب 7600 كيلومتر[1] .

ثالثاً -الإسلام في إفريقيا:

لم يلبث هذا الدين الإسلامي قائما، حتى رأينا نوره يبزغ في القارة الإفريقية، وقد طرق الدين الإسلامي أبواب إفريقيا في وقت مبكر جدا، فكانت أولى هجرة يقوم بها المسلمون إلى أرض إفريقيا، إلى الحبشة[2]. وكان ذلك قبل انتشار الإسلام في مكة المكرمة، مهبط الوحي ومنبعه، بصورة كافية، بله المناطق الأخرى من جزيرة العرب، فنرى الرعيل الأول الفارين بدينهم يستنجدون بالنجاشي، فآواهم وأكرم وفادهم وحماهم، وكفل لهم حرية العبادة، ورد كيد كفار قريش عنهم رغم ما بذلوه لاستردادهم[3] .

1- انظر نعمات الطحاوي، ط الأهرام التجارية ص 17.

2- وهي الإثيوبيا حاليا.

3- في السنة الخامسة من البعثة، انظر صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، ص 106.

وقد انتشر الدين الإسلامي العظيم في القارة بطرق متعددة، يصعب، إن لم يستحل، تتبعها كلها في هذه العجالة؛ أي تتبع هذا الدين العظيم في رحلته التاريخية في القارة.

وهكذا استقر الإسلام في هذه المنطقة منذ القرون الأولى للهجرة النبوية وصهر قبائلها في بوتقة واحدة حتى كادت تكون كيانا واحدا.

نرى هذا الدين العظيم قد استقر في البقاع، وأسس حضارة مزدهرة، وهذب أخلاقا، وقوم سلوكا، وأنشأ علوما وثقافة، وشيد جامعات تضارع مثيلاتها في شمال إفريقيا وفي الشرق الإسلامي، وكون ممالك وإمبراطوريات إسلامية في غانا ومالي وسنغي، وفي كانم وبرنو، وكانت الصلات بين الأجناس والشعوب المختلفة التقاليد واللغات والألوان وأنماط السلوك، قد صهرت الجميع في بوتقة كادت تكون واحدة، فأزال الحواجز، ومهد سبل الاتصال، وسهل التفاعل المثمر، وحذر من التباغض والتخاصم والتشاحن، ودعا إلى التعاون والتضامن وتقوية أواصر الأخوة بين المسلمين، وألح على أهمية العلم والتفكير في ملكوت الله، والبحث عن المعرفة ولو تجشم في سبيلها المشاق والمتاعب ...[1]، وكانت الجوامع والجامعات تزدحم بالمصلين وطلبة العلم، وكانت العلوم تنتشر في كل الاتجاهات في تمبكتو، في جني في أكدز، في كانم في برنو ...[2]

ولعلَّ من المناسب أن أذكر في هذا المدخل ضرورة قيام ورثة الأنبياء، العلماء الراسخين في العلم، بإعطاء المسلمين عموما -والدعاة ومبلغي الدين لما ينفع الناس خصوصا في القارة وغيرها- فكرةً عميقةً عن مبادئ الدين الإسلامي الأساسية، ومفاهيمه الصحيحة، ومقاصده الحقيقية، ومزاياه الفريدة، وهذا مهم جدًّا، هذا الفهم العميق للدين هو الذي سماه القرآن الكريم، والسنة النبوية بـ"التفقّه في الدين" في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ

1- انظر القاسم البيهقي، بعض مراكز الإشعاع الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء، ص 7.

2- نفس المرجع.

مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

وقال عنه معلِّمُ الناس الخيرَ، محمد صلى الله عليه وسلم: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»[2]، وقال محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام في دعوته لابن عمه عبدالله بن عباس رضي الله عنهما «**اللهم فقّهه في الدين، وعلِّمه التَّأويل**»[3].

وقد تقبّل الله هذا الدعاء النَّبويّ، حيث اشتهر ابن عباس بأنّه من كبار العلماء في فهم الدين، ومن العلماء الأوائل في تأويل القرآن الكريم، أي: تفسيره، وتوضيحه للناس...وإنما تحدَّثت عن هذه المسألة هنا؛ لأنَّ الكثير من المسلمين –اليوم- لا يفقهون، ولا يفهمون جيّدا مفاهيم الدين الإسلامي، مثل: مفهوم التّديّن، وغيرها من المفاهيم الإسلامية الأساسية، بل يفهمها الكثير من المسلمين فهماً خاطئاً يُشوِّهُ سمعةَ الدِّين، ويستغلُّهُ خُصومه في هجماتهم ضدَّ هذا الدين الحنيف.

لذا، يجب علينا نحن الدعاة مبلغي الدين الإسلامي، ليس في هذه القارة فقط، وإنّما في جميع المجتمعات الإسلامية: أمةً، وشعوبًا، وقبائل، أن نعمّق في نفوس الناشئة المفاهيم الصحيحة والأساسية للدين، ونحذر من خطر الأفكار، والمفاهيم الخاطئة التي يروِّجها الغوغائيون، من عصابات الأفكار الهدّامة تحت شعارات إسلامية، ونعراتٍ دينيةٍ؛ لإغواء الشباب المسلمين، وجرّهم إلى صفوف العنف، والتطرّف، والغلوّ.

ومن أكبر مزايا الدين الإسلامي وخصائصه أنَّه دين اعتدال؛ يوفّر السلم، والأمنَ، والأمانَ، والعدلَ للجميع، ويرفض جميع أشكال التَّطرُّف، سواء أكان باسم الدين، أم باسم التَّحرُّر منه.

1- سورة التوبة الآية 122.

2- متفق عليه، البخاري برقم 71 ومسلم برقم 1037.

3- صحيح البخاري برقم 70.

ولقد كرَّم الإسلامُ الإنسانَ حتَّى إنَّه حرّم النيل من نفسه، وماله، وعِرضه، وعقله، وكلّ عملٍ يلحق الضَّرر والظلمَ به، ويوجِّه الإسلامُ الفردَ المسلمَ، والجماعةَ على حدٍّ سواء إلى الاعتدال، واجتثاث نوازع الجنوح والتطرف، وما يؤدي ذلك إليه من غلوٍّ في الدين، قال النبيّ محمد –صلى الله عليه وسلم-: "إيَّاكم والغلوَّ في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلوُّ في الدين"[1].

والغلوُّ بجميع صوره –وهو مجاوزة الحد الشرعي- منهيٌّ عنه؛ لأنَّه تقدّم بين يدي الله ورسوله، قال جلَّ وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

وما ذمَّ الغلوّ إلا لأنَّه يؤدِّي إلى ظلم العبد لنفسه، ولغيره، وتضييع بعض ما أوجبه الله عليه، وقد يكون ما ضيَّعه أوجب مما غالى فيه. ومما يجب أن يُعلَم أنَّ الدين الإسلامي يختلف عما يعتقده أصحاب الديانات الأخرى، وضعيةً كانت أم سماوية، بأن الدين ليس إلا شيئا محصوراً في بعض المعتقدات التي تتعلق بتعريف الإله (الرب) وصفاته المختلفة، وفي تحديد الصلة بين الخالق والمخلوقات، وممارسة بعض الطقوس الدينية بصفة فردية أو جماعية، بجانب الأمور الأخرى التي تتعلَّق في معظم الأحيان بالفرد، أو في بعض الأحيان بالجماعة، والأكثر من ذلك.

فالدين الإسلاميّ منهج متكامل للحياة، يغطي مجالات الحياة الإنسانية كلها، شخصية كانت أم جماعيّة، عقدية كانت أم عملية، فرديةً كانت أم جماعيةً، اجتماعية كانت أم اقتصادية، سياسية كانت أم دينية، قضائية كانت أم إدارية، بل نجد تحت دائرة الدين في الإسلام، كل ما يدخل في مضمار الحياة العامة، لأنَّه منهج متكامل للحياة، والمراد بالتكامل هو الشمول، والاعتدال، وباختصار في القول: إنَّ الدين الإسلامي عقيدة وشريعةٌ، دين ودولة [3].

1- صحيح مسلم برقم 2670.

2- سورة الحجرات، الآية:1.

3- ينظر: عبد الله بن إدريس أبوبكر ميغا، مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع الإسلامي المعاصر بين الواقع والتطبيق، (منشور في مجلة مجمع الفقه الإسلامي بجدة).

وقد قال ابن القيم الجوزية –رحمه الله-في كتابه "إعلام الموقعين عن رب العالمين": "فإنَّ الشريعة مبناها وأساسها على الحكم، ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة، وإن أدخل فيها بالتَّأويل".[1]

العنصر الأول: الأنبياء والرسل وتبليغ الدين ودعوتهم لأقوامهم

إن تبليغ الدين لما ينفع الناس بصفة عامة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بصفة خاصة، لمن صميم الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، والدعوة إلى الله -عز وجل- أشرف وظيفة للإنسان، ثمارها الإيمان وعبادة الله تعالى، وللعبادة خلق الله الإنس والجن، وهذا النص القرآني يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]. ولما كانت الدعوة إلى الله وتبليغ الدين لما ينفع الناس، أشرف عمل، جعل الله تعالى أول من يقوم بها هم صفوة خلقه، الأنبياء والرسل، فكلهم جاءوا لدعوة الناس وهدايتهم إلى الصراط المستقيم، والقرآن العظيم يذكر هذا في العديد من آياته البينات، ومن هذه الآيات قول الحق سبحانه وتعالى عن نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[3]، وقوله جل شأنه عن هود عليه السلام: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾[4]، وقوله عز وجل عن صالح عليه السلام: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[5]، وقوله سبحانه وتعالى عن شعيب -عليه السلام - : ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً

1- إعلام الموقعين، 4 /242.

2- سورة الذاريات الآية:56.

3- سورة الأعراف الآية:59.

4- سورة الأعراف الآية :65.

5- سورة الأعراف الآية :73.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[1].

وإذا كان الرسل والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام جميعاً - هم الصفوة، فصفوة الصفوة رسولنا ونبينا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - صلى الله عليه وسلم - أرسل بنفس الرسالة ودعا إلى ما دعا إليه إخوته من قبله.

والملاحظ أن الآيات القرآنية التي سردناها تنتهي كلها بكلمة واحدة ﴿اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[2]، وقد جاء في القرآن العظيم الكثير من الحجج كلها تدعو إلى وحدانية الله تعالى، وسورة الإخلاص تقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[3]. وسورة الكافرون تقول: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ، وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[4].

وأما صفوة الأمم فهي أمة هذا النبي - صلى الله عليه وسلم -، وفيهم يقول رب العزة والجلال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[5].

وإذا كان مجال تبليغ الدين، والدعوة إلى دين الله الحق، دين الإسلام، هو المجتمع، وما يمارس فيه من أعمال وأخلاق، وأنماط سلوك، فلا بد إذن من الوقوف عند خصائص هذا المجتمع وسماته..

فالدعوة إلى الدين في وسط إسلامي تختلف عنها في وسط غير إسلامي –كما

1- سورة الأعراف، الآية :85.

2- 2- سورة الأعراف، الآية :85.

3- سورة الإخلاص: الآيات من 1 - 4.

4- سورة الكافرون، الآيات 1 - 6.

5- سورة آل عمران110.

سيأتي في العنصر الخامس من هذا البحث-، وكذلك في الوسط الذي تطبق فيه حرية القول والرأي، فإنه يختلف عن الوسط الذي يقيد فيه الرأي والقول، لأن الهدف والأساس هو الوصول إلى إرشاد الناس وهدايتهم إلى الدين الإسلامي، لا أن يتصرف الإنسان أو يرتكب أعمالا تنفر منها الناس، تحول بينه وبين تبليغ الدين ومتابعة عمله في الدعوة. والمبلغ أو الداعية إلى الدين ينبغي أن يراعي أن لكل مقام مقالا، ولكل مجال رجالا...

وما دام حديثنا متعلقا بالمجتمعات أو البلدان الإفريقية، فإن من المناسب جداً أن نشير إلى أن من يمعن النظر ويقلبه في خريطة العالم الإسلامي، أو يحتك بمجتمعاته، أو يستمع إلى القائمين بتبليغ الدين، وبالدعوة والإصلاح في هذا المجتمع أو ذاك، فإنه يخلص إلى أن الأسلوب الذي يتبعه بعض المبلغين للدين وبعض الدعاة والجماعات المتصدية للعمل الديني والدعوي هو في حد ذاته في حاجة إلى التصدي!!

فقد ركز البعض على المهاترات والهجمات، التي كرست في الناس البغض والكراهية، والميل إلى الثرثرة والهراء، بينما الإسلام قول وعمل، وليس قولا بلا عمل، كما يفعلون، حيث حصروا الإسلام في العاطفة، وجردوه من أهم خصائصه، وهو الجانب التطبيقي.

وقد ذكر الصحابة رضوان الله عليهم، أن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم كان لا يعلمهم الآية حتى يفرغوا من فهم التي قبلها.

ومضمون القرآن الكريم كله دعوة إلى ربط القول بالعمل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1]، وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[2]. وغير ذلك من الآيات البينات التي دعت إلى ربط القول بالعمل.

1- سورة الصف، الآيتان:2 - 3.

2- سورة فصلت الآية:33.

فالعمل هو الذي جعل المسلمين الأوائل يسودون العالم، والبعد عنه هو الذي أنزلهم فيما هم فيه من ضعف وانحطاط يعجز القلم عن وصفه [1].

وتأكيدا لما ذهبت إليه من تجاوز الحدود في الجانب النظري والعجز حتى عن التصور في الجانب العملي، أذكر الحادثة الآتية:

عند التفكير في وضع مشروع دستوري في بعض الدول الإسلامية الإفريقية، ألح بعض المسؤولين عن المشروع والمثقفين بالثقافة الغربية على فصل الدين عن الدولة والسياسة[2]، زاعمين أن الإسلام يتعارض مع الديموقراطية!!.

فلو عاد هؤلاء المهتمون بالثقافة الغربية في إفريقيا وأمثالهم في العالم الإسلامي، وما أكثرهم، إلى الإسلام، لأدركوا أنه طبق عمليا لا دعاية ما تدعو إليه الديمقراطية..

العنصر الثاني: من يمارس تبليغ الدين في المجتمعات الإفريقية وغيرها؟

إن النصوص الواردة في كتاب الله تعالى وفي سنة رسول الله محمد -صلى الله عليه وسلم- بشأن هذا الأمر كثيرة ومتنوعة، الأمر الذي يدل بوضوح على أهمية الموضوع واهتمام الشريعة به. والسؤال المطروح هو من يقوم بتبليغ الدين لما ينفع الناس في المجتمعات الإفريقية وغيرها؟ وهل ذلك مطلق أو مقيد؟

إن الذي يقوم بالدعوة وتبليغ الدين لما ينفع الناس في المجتمعات الإفريقية وغيرها، هو المكلف المستطيع كما جاء في قول النبي محمد -صلى الله عليه وسلم: **«من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**[3].

فهذا الحديث النبوي الشريف، وما في معناه من النصوص، يبين مستويات تبليغ

1- ينظر أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

2- يراجع في ذلك، د.عبد الله إدريس ميغا، مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع الإسلامي المعاصر بين الواقع والتطبيق، ص :5 - 6.

3- مسلم مع النووي كتاب الإيمان، باب وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر 2 /22، ط المصرية ومكتبتها بمصر.

الدين لما ينفع الناس، وأن أركان الاستطاعة للقيام بإزالة المنكر وتغييره بالمعروف أمران:

-**الأمر الأول:** الولاية العامة على الناس أو على الشخص المسؤول عنه على النحو الذي بينه محمد - صلى الله عليه وسلم- في الحديث الآخر، «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»[1].

فلا يمكن تبليغ الدين أو تغيير المنكر باليد إلا لصاحب ولاية عامة أو خاصة، وإلا فإن زمام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لو ترك لكل إنسان دون قيد، قد ينحرف عن رسالته في الإصلاح والتقويم في تبليغ الدين، فيكون عمله أداة فوضى ومشاحنات بين الناس، قد تؤدي إلى منكر أشد من الذي يريد إزالته وتغييره.[2] وهذا بلا شك سيؤدي إلى فتن تتجاوز الهدف من إزالة المنكر، إذ لا يصح إزالة منكر قد تؤدي إزالته إلى منكر أكبر منه.

-**الأمر الثاني:** القدرة العلمية: فهل يقدر على إدراك موطن الزلل وموضع المنكر في أمر من أمور الدين والدنيا إلا العالم الفقيه، أو الدارس المتخصص؟ فكل فتوى في أمر من أمور الدين، أو في شأن من شؤون الدنيا لم يقم بها عالم فقيه أو دارس متخصص، تكون وبالا على الناس في دينهم ودنياهم.

وهكذا فبالقدرة العلمية يستطيع الداعية ومبلغ الدين للناس، والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، أن يوازن بين الأمور، فإن كان الأمر بالمعروف مثلا يؤدي إلى عكس الغرض، أو يؤدي النهي عن المنكر إلى منكر أشد منه أو مساويا له، فالإمساك عنهما أصوب، وذلك من باب ارتكاب أخف الضررين[3].

فإذا تحققت الاستطاعة بركنيها، كان الشخص أهلا للقيام بتبليغ الدين للناس

1- مسلم مع شرح النووي، كتاب الإمارة، باب فضيلة الأمير العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق:12 /113...

2- ينظر د. عبد الله النجار، الانتماء للتشريع الإسلامي، ص 115 وما بعدها.

3- .عبد الله إدريس ميغا، مرجع سابق، ص15.

ومباشرة الدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشروط منها:

- الالتزام بآداب الإسلام في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، فيكون رحيما بالمخطئ حكيما مع المنحرف، داعيا إلى الله عز وجل بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلا بالتي هي أحسن، قدوته في ذلك الرسول محمد- صلى الله عليه وسلم -الذي يخاطبه ربه تبارك وتعالى بقوله عز من قائل: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[1].

فالدين الإسلامي لا يقر العنف في تبليغ الدين للناس والدعوة إليه، ولا يعترف بما ألفناه من أساليب تنطوي على تسفيه الناس ورميهم بالكفر والخطيئة، ونحو ذلك مما يؤدي إلى إحداث الفتنة باسم الدعوة إلى الإسلام، وتبليغ الدين، والإسلام لا يقرها. وصدق الله تعالى إذ يقول لسيد الموجهين إلى الصواب، وأعظم الدعاة إلى دين الله تعالى والمبلغين له: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[4].

ومن الشروط الأساسية كذلك أن يكون مبلغ الدين للناس والداعية، مثلا يقتدى به في تطبيق ما يبلغه للناس وما يدعو إليه، فهذا يجعل الناس يقبلون عليه. فالدعوة إلى الدين الإسلامي بتبليغه للناس، أو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية. والشروط التي ذكرت للداعية ومبلغ الدين للناس، يجب توافرها في كل مسلم، غير أن الإنسان في خاصة نفسه وأهله ملزم بتطبيق شريعة الله تعالى وهو فرض عين عليه، لا يجد سبيلا للانفكاك عنه، فالله تبارك وتعالى يقول بصيغة

1- سورة النحل الآية 125.

2- سورة البقرة الآية:272.

3- سورة الشورى الآية:48.

4- سورة آل عمران الآية: 159.

الأمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[1]، والمصطفى محمد -صلى الله عليه وسلم- يقول -كما سبق- "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"[2].

وهنا نؤكد مرة أخرى أن الدعوة إلى دين الله الحق، دين الإسلام فريضة حسب الشروط الواجب توافرها في الداعية. فالذين فهموا عدم فرضيتها مخطئون، مستدلين بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[3].

فقد دفعت هذه الآية في حياة الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى السؤال عن معناها، فقال: «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحا مطاعا، وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع العوام فإن من ورائكم أياما الصابر فيهن مثل القابض على الجمر للعامل فيهن أجر خمسين يعملون كعملكم»[4]، والقرآن العظيم في آية أخرى يذم قوما بقوله سبحانه: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[5].

خلاصه: القول إن الذي يقوم بتبليغ الدين لما ينفع الناس ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويدعو إلى دين الله الحق، دين الإسلام، الذي هو الدين منذ أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل لهداية الخلق، هو العالم، لأن العلماء ورثة الأنبياء.[6]

وفي العصر الحاضر أنشئت مؤسسات وتكونت جمعيات تعمل في مجال تبليغ

1- سورة التحريم الآية:6.

2- وسيأتي تخريجه في صفحة 17.

3- سورة المائدة الآية:105.

4- أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن باب قول الله تعالى: [يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم] 2 /132، صفحة برقم 4014 بسنن ابن ماجه، بتحقيق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية بمصر بدون تاريخ.

5- سورة لمائدة الآية:79.

6- والأنبياء لم يرثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر.

الدين لما ينفع الناس؛ هذه المؤسسات وهذه الجمعيات يجب عليها ليكون عملها صحيحا، أن تعتمد في أنشطتها في التبليغ على العلماء، لأنهم هم الذين يعلمون ما هو الحلال وما هو الحرام في الدين الإسلامي، حتى لا يحدث هناك خلط، فيحلل الحرام ويحرم الحلال، فيصاب الناس ببلبلة تشوه مثل الدين الإسلامي، وقد يؤدي ذلك إلى ضياع الدين الإسلامي، فيطبق الناس ما يظنون أنه من الدين، وفي حقيقة الأمر ليس من الإسلام والدين في شيء.

فينبغي أن تأخذ كل مؤسسة أو جمعية تعمل في مجال تبليغ الدين والدعوة، أو في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حذرها من إفلات زمام هذا الأمر الجليل من أيدي ورثة الأنبياء، العلماء العارفين إلى أيدي أشخاص غير متمكنين وغير مؤهلين ولا متخصصين، والآية القرآنية صريحة في هذا الخصوص: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1]، والرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- يؤكد ذلك في حديث الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: « إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبق عالما، اتخذ الناس رؤساء جهالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[2].

العنصر الثالث: الوسائل المادية لتبليغ الدين والدعوة إليه في البلدان الإفريقية وغيرها:

وسائل التبليغ والدعوة والإرشاد التي يمكن استخدامها لتحقيق أهدافها كثيرة ومتنوعة، بيد أنني في هذه العجالة، سأركز على بعض الوسائل المادية الأكثر تأثيراً في مجال تبليغ الدين والدعوة إليه وهي:

1- سورة التوبة الآية 122.

2- أخرجه البخاري في كتاب العلم باب كيف يقبض العلم مع الفتح برقم: 100، دار المعرفة، بيروت-لبنان (بدون تاريخ).

المال والإعلام...

المال عصب الحياة، وهو وسيلة وأمر لازم للتبليغ والدعوة، والمبلغ يستعين به لبلوغ مراميه النبيلة، فبدونه يكون مكتوف الأيدي متعثر الخطوات، وبدونه يصير محدود الحركة، وغير قادر على التنقل والاتصال بالناس في دوائر واسعة، لتبليغ الدين والدعوة إليه فيهم، أو تغيير ما يستطيع تغييره من المنكر، وتشجيع ما يراه من المعروف وصالح الأعمال..

ولم يغفل المبلغون للدين والدعوة إليه أهمية المال منذ بزوغ شمس الإسلام، فقد كان الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين -سباقين إلى بذل المال لنشر الدين الإسلامي، والدفاع عنه، ولأمثلة عطائهم السخي يشهد تاريخهم الوضاء، وتضحيتهم المؤمنة في سبيل الإسلام. وفي القرآن العظيم يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[1] حقا هم الصادقون.

فالمال إذن وسيلة هامة، وعدمه قيد لحركات المبلغ والداعية والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، وخاصة في عصرنا الحاضر، حيث دخل الجانب المادي كعامل أساسي في مجال تبليغ الدين والدعوة إليه، فإلى جانب أهميته الأساسية في التبليغ والدعوة، وإنشاء المساجد وتعليم القرآن الكريم والعبادات، وإلقاء المحاضرات والدروس والمناظرات والتأليف ... إلخ، جدت أمور ذات فعالية في استمالة الناس، ومساعدتهم، وتغيير ما بأنفسهم.. فالمدارس والمستشفيات، والأنشطة الاجتماعية المختلفة كلها داخلة في سياق التبليغ والدعوة في البلدان الإفريقية وغيرها.

والمساعدات في حالة الكوارث، كالمجاعات والزلازل والحرائق، من قبيل ما ينبغي أن ينتهز فرصة لتقديم المساعدات للمنكوبين، والإغاثة في مثل هذه الأحوال الاستثنائية تعين على نشر الدعوة وتبليغ الدين في البلدان الإفريقية وغيرها.

1- سورة الحجرات، الآية 15.

هذا ولم أشر لأهم وسيلة لتبليغ الدين إلى الناس في عصرنا الحاضر، وأثرها الكبير للتأثير في الناس في البلدان الإفريقية وغيرها، وهي المتمثلة في وسائل الإعلام: مقروءة، أو مسموعة، أو مرئية مسموعة.

فعلى مبلغي الدين للناس، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والمرشدين والمرشدات، وكل من يعمل في هذا الحقل، سواء كانوا دولا أم جماعات، أم أفرادا، أن يجهدوا أنفسهم في إيجاد وسيلة فاعلة للاستفادة من هذه الوسائل ويسخوا بالمال في سبيل ذلك، فإن تأثيرها في الناس لا يستطيع عاقل أن يتجاهله.

وباختصار: فالوسائل المادية جزء لا يتجزأ من لوازم التبليغ والدعوة.

فالذين يقللون من شأنها، فهم مثل الذين لا يزالون يصطادون بالشراك التقليدية، أو مثل من يسافر على ظهر الجمال، يصبح ويمسي أياما عدة ليقطع مسافة تطوى في ساعات قليلة بوسائل النقل الحديثة..

العنصر الرابع: أساليب تبليغ الدين في المجتمعات الإفريقية المعاصرة وغيرها:

لسبل تبليغ الدين والدعوة إلى دين الله أساليب نلخصها فيما يلي:

1 - التدرج في تبليغ الدين والدعوة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1].

فالمبلغ لدين الله لما ينفع الناس والداعي إليه معلم، والمعلم قد يكون متمكنا ويعجز في توصيل المعرفة إلى طلابه، أو يوصلها مشوشة غامضة تضيع في ثنايا التعابير، فيخرج الطلاب بثمن زهيد لجهدهم وجهد معلمهم، وقد يكون سببا في نفورهم أو حتى إجفالهم..

1- سورة النحل الآية 125.

وإذا كان لابد من معرفة ما يسعى الإنسان إلى نشره وتبليغه، فإن هذه المعرفة يتفاوت فيها الناس، وقد يكون الأقل هو الأكثر فاعلية حسب مواهبه، وحسب قدرته على نقل ما يريد إلى الناس حسب الحاجة الفعلية وبالتدرج، والأناة والصبر: قطرة قطرة حتى يفعم الإناء، فإن الأمور تبدأ صغيرة ضعيفة، فتشتد وتقوى مع الأيام..

ورسول الإسلام، محمد –صلى الله عليه وسلم –وهو القدوة لنا، ولكل مبلغ للدين لما ينفع الناس، رأيناه يبدأ دعوته سرا، وبلا ضجة، وذلك لأن مصلحة الإسلام تقتضي ذلك، ثم صرح بها تدريجيا، خرج بها من السرية ثم استمر بحكمة لا ينثني عن هدفه..

أقول: إن كل وسائل الدعوة والتبليغ بما فيها العلم الغزير، لا ينجع إذا كان المبلغ والداعية غير مزود بصفات شخصية محورها حسن التصرف تجاه أي موقف أو أي شخص يواجهه.

فالناس تختلف أنواعا، بل لا تتفق حتى في الأفراد، وقد يوجد شخصان شقيقان من ثقافة واحدة، أو من وضع اجتماعي واحد أو متشابه، وتتباين طرق التأثير فيهما ...

وهذا يعود إلى منهج الداعية والمبلغ، وحسن تصرفه في كل موقف، والذي يجب على المبلغ للدين أن يضعه نصب عينه، ويجعله حاضرا ويقظا في ضميره، هو تحديد الهدف واختيار أحسن السبل لتحقيقه، بلا عجالة، ولا سخط ينفر منه الناس، وأن يبدأ في تحقيقه خطوة خطوة ...

ومعروف لدى الدارسين لمنهج سيد المبلغين والدعاة، محمد بن عبد الله-صلى الله عليه وسلم-أنه سلك طريق التدرج في تبليغ الدين ونشر الإسلام. وقد ألف الناس العبارة التي تقول:" إن القرآن الكر يم نزل منجما وفي أكثر من عشرين سنة"، وأخرج الإمام البخاري –رحمه الله - في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها

قولها:" إنما نزل أول ما نزل منه أي القرآن سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام ، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل لا تزنوا، لقالوا لا ندع الزنا أبدا"[1]. وثبت عن الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين- كما أسلفنا أنهم كانوا لا يتجاوزون آية إلى أخرى حتى يتعلموا ما في الأولى...

إن الدارس للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، دراسة فاحصة عميقة، علم بدون التباس كيف وبأي تدرج وانسجام تم انتشار الإسلام في بلاد العرب على يد النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد نفذ تعاليم الإسلام شيئا فشيئا، مادة مادة، إلى أن اكتملت، وما زال يعمل بصفة غير منقطعة عدة سنوات، لتحريم الخمر- مثلا- كما أشرنا آنفا إلى أن أعلن تحريمها النهائي بصفة قطعية.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

العنصر الخامس: التبليغ والدعوة في وسط غير إسلامي، وفي وسط إسلامي

أولا: التبليغ والدعوة في وسط غير إسلامي:

أيكون من نافلة القول أن نشير إلى البيئة التي بزغ فيها نور الدين الإسلامي؟ أيحتاج إلى القول بأن رسول الله محمدا -صلى الله عليه وسلم -بعث إلى مجتمع دأب على الوثنية، وأن مكة كانت على عهد الوثنية تموج بحركة عاصفة من الشهوات والمآثم، وكان الرجال الذين يحيون فيها أمثلة قوية لنضج الأهواء وشلل الأفكار أو نمائها في ظل الهوى الجامح[3] .

صفة قاتمة لهذه البيئة التي سطع فيها نور الحق، وانبثق أول ما انبثق في جبالها

1- البخاري في كتاب فضائل القرآن باب تأليف القرآن مع الفتح، المجلد التاسع، الصفحه 38 إلى 39 رقم 493، مطبعة «دار المعرفة» بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

2- سورة المائدة الآية 90.

3- محمد الغزالي فقه السيرة صفحة 25، دار الكتب الحديثية، القاهرة.

الوعرة ومغاراتها الموحشة، ومجتمعها الغارق في جميع الآثام، عبدة أصنام وأوثان، عبدة شهوات هابطة، أمراض نفسية تفتت القلوب وتدفع إلى صراعات لا تنتهي إلا لتبدأ...

في هذا المجتمع الجاهلي الوثني، انبثق نور الدين الإسلامي، أخذ سيد الورى محمد -صلى الله عليه وسلم- على عاتقه وبأمر من ربه هداية الناس جميعا، انطلاقا من هذه البيئة البائسة الأخلاق، الشامخة الكبرياء، الكافرة بالله تبارك و تعالى، الناكرة ليوم البعث والجزاء، في هذه البيئة الموبوءة جاء محمد - صلى الله عليه وسلم- بالنور والهدى. وهل عندما صدع بأمر الله تعالى، وأعرض عن المشركين، وواجه هذه البيئة الفاسدة كان يقود جيشا عرمرما ينوء بالعتاد والمؤن؟ الجواب يعرفه الجميع، حتى الذين كفروا، حتى الذين نافقوا حتى الذين عاندوا والذين لجوا في اللدد.هذا محمد -صلى الله عليه وسلم - ينطلق برسالته وحيدا لو وضع الثقلان: الشمس والقمر في يديه، ومكنوه من كل ما لديهم من سلطان ومال وجاه، ونعيم وملذات هي الدنيا كلها، ما توقف عن دعوته وتبليغ دينه لما ينفع الناس في المجتمعات.

وقد عرض على رسول الله محمد -صلى الله عليه وسلم- كل هذا ولكنه تابع سيره لا يعوقه أي عائق ودعا إلى توحيد الله تعالى، ونبذ الأصنام، وتسفيه عقول المشركين. حقا إنه سلك طريقة الحكمة وسبيل الموعظة الحسنة في دعوته، بيد أن الحكمة لا تعني الرضا بالشرك، والموعظة الحسنة لا يراد بها السكوت عن الحق وقبول الوثنيات وأنواع الفساد والضلال، الذي جاء الدين الإسلامي داعيا لتركه. فالدين الإسلامي إذن، بدأ أول ما بدأ في مجتمع وثني فاسد، ورسول الإسلام محمد - صلى الله عليه وسلم - واجه هذا الشرك وكل أنواع الفساد وحيدا.

وعلى الداعية المبلغ لدين الله أن يحسن التعامل في المجتمعات غير المسلمة، قدوته نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- الذي صبر على تبليغ الدين، في وقت كان لا يوحد الله تعالى إلا هو والفئة المؤمنة التي اعتنقت دعوته، ورحبت بها، وواجهت كل شيء في سبيل إيمانها. لذلك يجب على المبلغ للدين، والداعية في مجتمع غير إسلامي، أن يركز أولا على الإيمان بالله ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - وأن يكون حكيما

في تصرفاته مع الناس، وأن يكون المثل الأول لما يدعو إليه ويبلغه للناس.

وفي هذا المجتمع، يكون التبليغ والدعوة إلى الدين الإسلامي بلفت أنظار الناس إلى آيات الله في الكون، في كل شيء في الحياة، للتدرج بهم إلى الإقناع بوجود الخالق سبحانه وتعالى.

وهذا ما نجده في سيرة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - والأمثلة كثيرة كذلك في الذكر الحكيم:

قال تعالى ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[1]

وقال سبحانه ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ،وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[2]، ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ، وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ، فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[3]، ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا، فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا، وَعِنَبًا وَقَضْبًا، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا، وَحَدَائِقَ غُلْبًا، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا، مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[4].

ثانيا- التبليغ والدعوة في وسط إسلامي:

هنا يأتي التبليغ، وتأتي الدعوة إلى دين الله عز وجل والتوعية، وأقصد بها شرح محاسن الدين الإسلامي عامة، وانتداب كل مؤمن للعمل بهذه المحاسن...

1- سورة الغاشية، الآيات 17 - 18 - 19 - 20.

2- سورة ق، الآية 6 - 7.

3- سورة الذاريات الآيات 20 - 21 - 22 - 23 .

4- سورة عبس، الآية 24 - 32.

وأقصد بالوسط الإسلامي هذه الأخلاط من المجتمعات، الإفريقية وغيرها، التي انتشر فيها الدين الإسلامي قديمًا، وتوارثته حديثا، وتوارثت كل ما خلفه الأجداد من عادات وتقاليد اختلط الكثير منها بتعاليم الدين الإسلامي في مجالات السلوك الإنساني، وترك عليها طابعا يميزها عن تلك التي لم تدخل في الدين الإسلامي، ولم تتأثر حياتها بمبادئ الدين الحنيف، ولم تعترف على الخصوص برسالة رسول الله محمد-صلى الله عليه وسلم-، ولم تؤمن بعقيدة التوحيد التي جاء بها، ولم تؤمن به رسولا أتم الله تعالى على يديه رسالة الرسل.

هذه المجتمعات الإفريقية وسواها التي آمنت برسالة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - وصنعت حضارتها، هي المسلمة وإن لم تطبق الدين الإسلامي كما أمر الله تعالى أن يطبق، وإن لم تصل كل ما أمر الله به أن يوصل، فيها الخير الكثير لأنها آمنت. ومهمة المبلغ تفرض عليه أن يأخذ بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن ينهض بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه المجتمعات الإفريقية وغير الإفريقية، التي سميناها "وسطا إسلاميا"، وهذه مهمة ليست من الأمور الهينة لأنها تفترض عدة أمور منها:

- معرفة ما هو المعروف وما هو المنكر شرعاً، كي لا يأمر الداعية بالمنكر وينهى عن المعروف.

- أن يكون ذا فطنة يعرف كيف يخاطب الناس، بحيث يصل إلى هدفه من الأمر بالمعروف وإزالة المنكر بحكمة، ويتفادى أساليب الاستفزاز وتهييج المشاعر بطريقة قد تؤدي إلى العناد ومتابعة الفساد.

- وأن يكون هو نفسه قد اتبع الحق، وأقلع عن المنهي عنه، فسلوكه الشخصي المستقيم يعد أكبر دافع للناس للاستماع له والامتثال لأوامره.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من الأمور التي مدح بها الله تبارك وتعالى أمة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك في قوله سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

﴿لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1].

وقد يكون تبليغ الدين للناس، أمرا بالمعروف في ثوب النصيحة يسديها المبلغ المسلم للمجتمع وللجميع، والرسول محمد -صلوات الله وسلامه عليه-: يقول "الدين النصيحة، فقلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولنبيه، ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم"[2] والحديث التالي عن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم لا يدع منفذا لأحد لينفلت من تبعاته؛ «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته**»[3].

العنصر السادس: وهو عبارة عن خاتمة البحث وخلاصته:

بعد هذا العرض عن تبليغ الدين لما ينفع الناس في البلدان الإفريقية، وغيرها، نأتي إلى خلاصة البحث، ونؤكد أنَّ في بحار من الشرك والضلال، انبثق نور الحق -ليس في القارة الإفريقية فحسب بل في جميع قارات الدنيا- يضيئ الطريق ويضع المعالم، ويزيل الظلام، فكان ميلاد سيد الورى محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب العربي القرشي الهاشميّ، نبيّ الرحمة والهدى، بجوار بيت الله الحرام بمكة المكرمة، انطلق نور هذا الدين الإسلامي الحق، فأضاء الكون، وبدأت البشرية عصراً، بل عصورا جديدة مضيئة بنور الدين الإسلامي والحق، فإذا به يزيل هذا الظلام، ويقود الناس إلى بر الأمان، ويحق الحق، ويبطل الباطل، وينشر السلام والوئام، والعدل بين الخلق أجمعين.

ولم يطل الوقت حتى رأينا هذا النور يسطع على غرب إفريقيا، يجتاز بحار العالم،

1- سورة آل عمران الآية 110.

2- رواه مسلم في صحيحه عن تميم الداري رضي الله عنه برقم 55.

3- سبق تخريجه في صفحة 19.

ومسافات الصحراء، ويضيئ عيون الناس، فأزاح عنها ظلام الشرك وغشاوته، فتمسكوا بضياء الحق، ضياء الإسلام، وسرى الإيمان في مشاعرهم، واستقر في قلوبهم.

وأنتم تعلمون أنَّ الإسلام ما حلَّ في مكان إلا حلَّت معه اللغة العربية والثقافة الإسلامية التي هي أساس التراث الإسلامي الإفريقي.

ولا يمكن الحديث عن سبل تبليغ الدين لما ينفع الناس في البلدان الإفريقية دون الإشارة إلى وصول نور الإسلام إلى هذه المنطقة الإسلامية، التي هي محل البحث كما رأينا في هذا المقال.

إنَّ الإسلام قد وصل نوره إلى هذه المنطقة بعد أن سطع نوره من وعلى مكة، وأضاء الكون فاستضاءت البشرية به من ذلك اليوم، حيث انطلق سيد الورى، نبيّ الرحمة والهدى محمد بن عبد الله بن عبد المطلب –صلوات الله وتسليمه عليه-انطلق منها بهذا النور، نور الدين الإسلامي، يدعو الناس كافة إلى الحق، يدعو إلى التمسّك بكتاب الله وسنته، والعمل بما فيهما.

نعم، لم يلبث غرب إفريقيا أن انخرط في الركب، ولا يحق لأهله أن ينحرفوا عن الطريق السَّويّ الذي سلكه إخوانهم المسلمون في القارات الأخرى.

وقد أسهمت الكتاتيب القرآنية، والحلقات العلمية بدور كبير في نشر الدين الإسلامي، ولغته العربية، وثقافته وتراثه العظيم في غرب إفريقيا، جنوب الصحراء، حيث كان كبار العلماء يعقدون حلقات في الثقافة الإسلامية باللغة العربية منذ دخل الإسلام، ووصل نوره إلى هذه المنطقة، فكانت لغة الآداب، وشتى العلوم الإنسانية، والدبلوماسية، وكانت لغة كبار العلماء: علَّموها، وكتبوا بها كتباً قيمةً في المجالات العلمية، والأدبية المختلفة، التي ازدهرت في حضارة الإسلام قروناً عدةً، بل قامت ممالك، وسلطنات وحتى إمبراطوريات إسلامية عظيمة في المنطقة، لعبت كلها دوراً واضحا وكبيرا، في نشر هذا الدين في ربوع القارة، خاصة السودان الغربي

جنوب الصحراء.

فلما جاء الاستعمار الغربي إلى إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، حاول صرف اللغة العربية عن المجال الإداري، وأدخل كثيراً من أولاد المسلمين في مدارسه، وحصرها في المجال الديني فقط.

ورغم كل ما قام به الاستعمار الغربي من أعمال يقصد بها القضاء على لغة القرآن، بل على القرآن نفسه بقيت هذه اللغة وثقافتها شامخة، والحمد لله. ولعلَّه لا يعلم الكثير، وحتى من أبناء المنطقة، أنَّ اللغة العربية في بعض بلدان المنطقة كالنيجر، تمتاز عن غيرها من اللغات واللهجات المحلية الوطنية الأخرى، حيث تدرس رسميا في المدارس الحكومية وغيرها، وتكتب بها أهم وثيقة رسمية وهي جواز السفر جنباً إلى جنب مع اللغة الفرنسية، لغة الإدارة الرسمية التي أضحت بدورها حلقة وصلٍ، وتفاهم بين المثقفين من الشعب.

العنصر السابع: وهو عبارة عن أفكار للتوصيات المقترحة:

1. توحيد الجهود، وتنسيقها: ينبغي لأجهزة تبليغ الدين والدعوة، ومؤسساتها، خاصة في بلدان فروع مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، أن تتعاون بينها، وليكون هذا التَّعاون فعَّالا، ومدروسًا، يجب إنشاء نقطة ارتكازٍ تستقطب كلَّ، أو معظم المؤسسات المعنية بالدعوة في البلدان الإفريقية، ويكون مركز التنسيق هذا، والمتابعة في الأمانة العامة لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة؛ وذلك لأسباب منها: أنّها تمثل ثمانية وأربعين دولة من دول القارة.

2. إنشاء صندوق الدعوة في الأمانة العامة للمؤسسة، يموَّل من تبرعات ذوي الغيرة على الإسلام في البلدان الإفريقية، وغيرها.

3. إنشاء منظمة إغاثة في الأمانة العامة للمؤسسة، تساند جهود الدعوة وتبلغ الدين الإسلامي في البلدان الإفريقية.

4. تدريب المبلِّغين والدعاة على أحسن سبل التبليغ، وطرق الإقناع حسب المواقف في البلدان الإفريقية.

5. وضع مناهج بواسطة المتخصصين للدورات في مجال تبليغ الدين للناس، حسب البيئات والشعوب في البلدان الإفريقية.

6. إنَّ الجانب العلمي أساس تبليغ الدين، والداعية عموماً، كالمحرِّك وإذا كان المحرك يحتاج إلى أشياء أخرى ليدور ويقوم بعمله أحسن قيام، فالمبلِّغ للدين الإسلامي، والدَّاعية إليه يحتاج بجانب علمه إلى معرفة كيفية معاملة الناس في البلدان الإفريقية وغيرها، ونقل وتوصيل المعلومات إليهم بطرقٍ مفيدةٍ ناجعةٍ.

7. إنَّ وسائل الإعلام (الصحافة-الإذاعة-التليفزيون) أهم شيء لتكييف أفكار الناس، وتوجيههم في البلدان الإفريقية وغيرها، وهي تخترق كلَّ المسافات، وكل الحواجز. وللاستفادة منها في تبليغ الدين والدعوة والوقاية، ينبغي أن ينظر المسلمون الأفارقة وغيرهم إلى خطورتها بصفة خاصة، لتدرس كل أبعادها الدينية، والسياسية، والثقافية، والاجتماعية، والتعليمية، وتُوضَع لها برامج مناسبة يمكنها إرضاء رغبات الناس السليمة في البلدان الإفريقية، وغيرها.

وفقنا الله تعالى جميعاً إلى ما فيه صلاح وحماية هذا الدين، وصلاح المؤمنين به، وإلى ما فيه تبليغ الدعوة إليه؛ ليؤمن به المتخلفون عن نور الله تعالى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية حفص.

- الإمام البخاري، دار المعرفة، بيروت-لبنان (بدون تاريخ).

- الإمام مسلم، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- سنن ابن ماجه بتحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية بمصر بدون تاريخ.

- الإمام البيهقي، السنن الكبرى، دار المعارف العثمانية.

- الطبري، التاريخ، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بيروت لبنان عام 1993م.

- أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مطبعة دار الشروق، مصر (بدون تاريخ).

- الطحاوي، النعمات، مطبعة الأهرام التجارية.

- أبي داود، السنن، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

- الترمذي، السنن، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

- صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، طبعة دار ابن كثير.

- عبد الله النجار، الانتماء في ظل التشريع الإسلامي، طبعة المؤسسة العربية الحديثة في القاهرة 1988م.

-عبد الله بن إدريس أبوبكر ميغا، مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع الإسلامي المعاصر بين الواقع والتطبيق.

-محمد الغزالي، فقه السيرة، دار الكتب الحديثية، القاهرة.